«أحبك ليلى مراد... أحبك»

حنان الشيخ

روائية لبنانية

قفلت راجعة من الكلية إلى مكان سكني، كلي ضياع وحسرة. لا أفهم كيف أن الرجل الذي أحب والذي كان يكبرني بأعوام كثيرة أقدم على خيانتي. شرح لي أكثر من مرّة عن السبب، حدثني عن المنطق والظروف والأسباب والعوامل وفارق السن... فاستنتجت أني السبب لخيانته لي. نظرت إلى نفسي وأنا في الشارع من غير مرآة، والكتب الدراسية مضمومة إلى صدري. قلت لجسمي: «أكرهك» قلت لخوفي «أكرهك» وتساءلت متى سأكون طبيعية كهذه الشابة، كهذه الامرأة، ترى هل سأحمل يوماً مثل تلك الزوجة التي تضع يدها فوق بطنها؟

وصلت إلى العمارة الكبيرة في قصر النيل، حيث أشارك بنات فلسطينيات لسكن غرفة واحدة لدى امرأة اسمها طانت راشيل وزوجها أونكل فيليكس، فكّرت بل رأيت نفسي وبحسرة أقف قبل أسبوع عند هذا المدخل أنتظر الرجل الذي أحب، كيف رأى قلبي السيارة السوداء وفرّ إليه؟ ترى هل سأقف من جديد عند باب العمارة أنتظر؟

كبست جرس الشقة، تناهى إليّ أصوات وقرقعة فناجين، تذكرت أن اليوم هو يوم «لعب الورق» حيث طانت راشيل تستضيف لاعبات البوكر. فتحت لي الخادمة «هانم» الباب، رأيت وجهها مضيئاً واسعاً كالقمر، رميت كتبي أينما

كان، هرعت إلى ذات الوجه المضيء صائحة: «ليلى مراد ... مش معقول، بحبك ليلى مراد، بحبك». عانقتها وهي ما تزال جالسة شعرت بامتلاء صدرها، اشتممت رائحة عطرها، وعندما استوعبت أني أعانق ليلى مراد فعلاً، شددت على ليلى بنت الفقراء، على ليلى بنت الصحراء، على ليلى بنت الذوات، على القفص الصدري الذي انطلقت منه أغنية «الميه والهوا. تتعالى ضحكات لاعبات الورق. تعليق ليلى مراد الخجول: "أنت طعمة خالص... يا ظغنونة». وصوت طانت راشيل ينادي «دي تلميذة من بيروت...»

منذ اليوم الأول لإقامتي لدى طانت راشيل كانت تلقي على مسامعي ومسامع البنات الفلسطينيات أنها صديقة للنجمة السينمائية والمطربة ليلى مراد. ولا بد أن تأتي مرة وتشاركهن بلعبهن «البارتيته» رغم أن ليلى مراد قلّما تترك منزلها هذه الأيام.

ذاك الصباح انهمكت الخادمة هانم في تلميع الأباجورات النحاسية وفي مسح الغبار عن تمثال بوذا المعروض فوق الطاولة، بينما تمتمت لنفسي... «حرام طانت راشيل ... كل هذا العذاب... من غير نتيجة!». سحبت كرسياً وجلست إلى جانب ليلى مراد للحظات، أنهض وآتي لها بكوب من الماء، رفعت شعرة سوداء قد فارقت تسريحة شعرها «الشينيون». بحلقت في الفم الذي يميزه الصغير والكبير، تأملت في العينين الملونتين بلون البنفسج واعدة نفسي أن أخبر أمي بهذا الاكتشاف، تفكيري السريع في أمي جعل قلبي يخبط بعنف، تذكرت فيلم «الحبيب المجهول» وأمي تطلب مني أن أحمل أخي الصغير الباكي مسرعة به خارج الصالة، ولا أعود به إلا إذا كف عن البكاء، ارتعد داخلي خوفاً من ألا أعثر على أمي بين الرؤوس الكثيرة والمقاعد العديدة في العتمة. وجدتني أهتف لليلى مراد وأنا أسمعها تزفر زفرة طويلة، ربما لأنها كانت تخسر في لعب الورق، "ليلى مراد كلنا نحبك في بيروت ... أمي تعبدك، مريم بنت خالتي بتموت عليك، فضيلة بتقلدك ... ولم أسترسل قائلة: لا بد أفلامها ووقوعها في الغرام على الشاشة وخارجها ودموعها وأغانيها خاصة أغنية «نعيماً ياحبيبي» أثرت كل التأثير في أمي لدرجة أنها أرادت أن تدخل الشاشة وتعيش قصص الغرام هذه... لم أقل لها كل هذا لأني كنت ساهية عن هذا التحليل والربط آنذاك (١٩٦٥).

بقيت إلى جانب ليلى مراد، رصدت حركاتها، عددت لها أنفاسها، ضيقت عليها الخناق، حدقت في راحتها، شوشت على تركيزها في اللعب. حثثت نفسي لأن أطلب منها لو تأخذني معها إلى بيتها حتى أعيش معها إلى الأبد. لكن ليلى مراد فتحت شنطة يدها وناولتني عشرين جنيهاً، أصابني الارتباك، لكن طانت راشيل أومأت لي بما معناه أن أمد يدي وآخذها.

أنسى خيانة الرجل الذي أحب، والبلاطة التي جثمت على صدري الأسبوع الماضي، منذ رأيته مع شابة شقراء الشعر، ممتلئة الوجه والأرداف، نقيضي تماماً، تفارقني.

صفحت عنه، بل إني نسيته تماماً وأنا جانب ليلى مراد... ولم أفكر فيه إلا قبل أن أغمض عيني استعداداً للنوم، وللحظات فقط، إذ تحوّل مجرى تفكيري إلى العشرين جنيهاً التي أخذتها مني طانت راشيل فور ذهاب ليلى مراد والبقية... وكلّي أسى لأن الجنيهات التي لامست أصابع ليلى مراد لن تلامسها أصابعي مرة أخرى.